سيفيات المتنبي

نثر الشعر ، قول في أبي الطيب

للأستاذ محمد سعيد الشنتيجي

قال ابن أبي الحديد صاحب الشرح الكبير (للنهج) في كتابه : (الفلك الدائر على المثل السائر[1]) : « كنت شرعت في حل (سيفيات المتنبي) لشهرتها وغلبتها على ألسنة الناس ، وأن أجعل ذلك كتاباً مفرداً أتقرب به الى الخزانة الشريفة[2] — عمرها الله تعالى — فخرج بعضه ، وصدف عن إتمامه عوائق الوقت وشواغله » .

فهل أكمل ابن أبي الحديد هذا الكتاب ؟ وأين هو ؟

إن كان الزمان — وقد كان — قد أضاعه فانه أبقى بقية منه . وفيها الدليل عليه ، وأنا مورد اليوم منتقاها طرفة أدب لأدباء العرب ، وإعلاماً أن احمد بن الحسين قد شغل حكيماً وعالماً متكلماً مثل (ابن أبي الحديد) كما شغل الأدباء واللغويين وغيرهم : فأديب نقده ، ولغوي شرحه ، ومؤرخ كتب سيرته ، وعالم نثر شعره او حل نظمه ، وآخر جمع حكمته . وانها لسعادة ما نال مثلها شاعر ، وما أسعد (احمد) الا عبقريته ، والعبقري في الدنيا شقي وسعيد ،

وحل النظم من أفانين الأدب في القديم ، وقد دفع اليه الكتاب حين اتسع مجال الإنشاء . « وأول من فكّ رقاب الشعر وسرّح مقيده إلى النثر عبد الحميد الأكبر كاتب بني أمية إلى انقضاء خلافتهم »[3] والجاحظ من أوائل من نثروا الشعر ، واستعانوا في كلامهم بقريض القارضين . روى عبدالقاهر في (دلائل الأعجاز) هذه الرسالة للجاحظ الى ابن الزيات وقال : إنه نثر قول نصيب :

---

(١) مطبوع في الهند . (٢) خزانة الكتب للخلافة العباسية في بغداد .
(٣) ورد ذلك في صبح الأعشى نقلاً عن كتاب (اريحان والريحان) .

فعاجوا فأثنوا بالذي انت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

قال الجاحظ : « نحن (أعزك الله) نسحر بالبيان ، ونموه بالقول ، والناس ينظرون الى الحال ، ويقضون بالعيان . فأثر في أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا ، فان المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب » .

وروى بعضهم : « نظر أبو تمام الى سليمان بن وهب وقد كتب كتاباً فقال كلامك ذوب شعري » .

وفي (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري : « سمع بعض الكتاب قول نصيب (فعاجوا البيت) فكتب : لو أمسك لساني عن شكرك لنطق عليّ أثرك . وفي فصل آخر : ولو جحدتك احسانك لأكذبتني آثاره ، ونمت علي شواهده . وقريب من ذلك قولهم : شهادات الأحوال أعظم من شهادات الرجال » .

وفي (كتاب الصناعتين) « قال بعضهم : الكتابة نقض الشعر . وقيل للمتنبي : بمَ قدرت على البلاغة ؟ قال : بحل معقود الكلام » .

ولأبي منصور الثعالبي كتاب سماه (نثر النظم ، وحل العقد[1]) نثر الكتاب المترجم بـ (مؤنس الأدباء) وهو مختار صغير من الشعر وقد تقدم اليه في حله (أبو العباس خوارزم شاه) كما ذكر الثعالبي ذلك في ديباجة الكتاب .

ولضياء الدين بن الأثير صاحب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) كتاب في هذا المعنى اسمه (الوشي المرقوم في حل المنظوم[2]) وفيه أيضاً حل لآيات قرآنية وأخبار نبوية . قال ابن خلكان : « وهو مع وجازته في غاية الحسن والافادة » ، قال ابن الأثير في هذا الكتاب : « وكنت

(١) منه مخطوطة في (الخزانة الظاهرية) في دمشق ، وقد طبع في مصر .
(٢) منه مخطوطة في دار الكتب المصرية .

حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين : حبيب بن اوس ، وأبي عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب المتنبي . فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني ، وصار الادمان لي خلقاً وطبعاً . وانما ذكرت هذا الفصل في معرض أن المنشيء ينبغي أن يجعل دأبه في الترسل حل المنظوم ، ويعتمد عليه في هذه الصناعة » .

والتعويل كل التعويل على ما يقول ابن الاثير ، فيه — عندي — من الضرر ما فيه ، وشرح هذه المضرة — ان اردناه — يطول ، ولسنا الآن في مقام تبيينها . واستظهار الاشعار وكلام العرب انما هو للظفر بالملكة والاهتداء الى الاسلوب العربي ثم الكاتب وبراعته في التوليد والاختراع والابداع ، واين الحرّ المبدع في القديم والحديث اين ؟

وحل الابيات الشعرية ينقسم عند ابن الاثير الى ثلاثة اقسام ذكرها في (مثله السائر) :

(الأول) منها وهو أدناها مرتبة ان يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن اخذ عقداً قد اتقن نظمه ، واحسن تأليفه ، فأوهاه وبدده . وأيضاً فانه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة فيقال : هذا شعر فلان بعينه لكون الفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

واما (القسم الثاني) فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ، ويعبر عن البعض بالفاظ أخر . وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة .

وأما (القسم الثالث) وهو أعلى من القسمين الاولين فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بالفاظ غير الفاظه وثم يتبين حذق الصائغ في صياغته ، فان استطاع الزيادة على ذلك المعنى فتلك الدرجة العالية . وإلا أحسن التصرف واتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول .

وقال (ضياء الدين) في التدريب على الحل :

« من أحب أن يكون كاتبا أو كان عنده طبع مجيب فعليه بحفظ الدواوين ذوات المدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته . وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيدة من القصائد فينثر بيتاً بيتا على التوالي ، ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بالفاظه أو باكثرها فانه لا يستطيع الا ذلك ، واذا مرنت نفسه ، وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا من العبارات المختلفة . وحينئذ يحصل لخاطره بمباشرة المعاني لقاح فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني ، وسبيله أن يكثر الادمان ليلا ونهارا . ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة . فاذا كتب كتابا ، أو خطب خطبة تدفقت المعاني في اثناء كلامه وجاءت الفاظه مسولة لا مغسولة ، وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصا » .

* * *

سيفيات المتنبي ، هل أبيات منها لابن ابي الحديد :

فصل في التهنئة بعيد :

لا زالت المواسم تغشاك وأغصانها وريقة وحدائقها أنيقة ، والأعياد تلقاك وأنت عيدها على الحقيقة ، ولا برحت تهتصر الشباب لدناً رطيباً ، وتنضو من الاعياد سملاً وتلبس قشيبا . فهذا اليوم الشريف في الايام ، مثلك في الانام لكنه أوحد عامٍ محصور ، وأنت أوحد الأعوام والدهور . ولا أحيل ذلك على محض الجد الذي ميز بين اليومين ، وفضل إحدى العينين ، بل على الجد الذي أسهرك وحاسدك راقد ، وشانئك قاعد .

هذا محلول قوله :

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده ... وعيدٌ لمن سمّى وضحى وعيدا .
ولا زالت الأعياد تلبسك بعده ... تسلم مخروقاً وتعطى مجددا .
فذا اليوم في الأيام مثلك في الورى ... كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا .
هو الجدُّ حتى تفضل العين أختها ... وحتى يكون اليوم لليوم سيدا .

وقد زدت عليه بأن جعلت توحيده بالاستحقاق لا بالجد والاتفاق ، وفيه زيادة أخرى وهي عموم توحيده وخصوص توحيد العيد في أيام العام .

* * *

فصل في ذكر المراسلة :

وتوالت منهم رسائل جعلوها عليهم أدراعاً ، وقصدوا بها تزجية الوقت ودفاعاً ، فظاهرها الاعظام لنا والاجلال ، وباطنها الارجاء لهم والامهال .

هذا محلول قوله :

دروع لملك الروم هذى الرسائل ... يرد بها عن نفسه ويشاغل .
هي الزرد الضافي عليه ، ولفظها ... عليك ثناءٌ سابغٌ وفضائل .

* * *

فصل

بابه المعمور كعبة الحيا ، ومغناطيس الشفا ، فالملوك تقبل بساط ديوانه وتقصر عن تقبيل كمه وبنانه .

هذا محلول قوله :

تقبل أفواهُ الملوكِ بساطه ... ويكبر عنها كمه وبراجه .(١)

* * *

(١) البرجة المفصل الظاهر او الباطن من الأصابع ، الجمع : براجم .

فصل

أنا أستعديك عليك ، فالخصومة فيك ومنك واليك واستميحك عدل قضائك الذي عمّ الخلق وعداني ، وشمل الناس وتخطاني ، وأعيذ مرآة فكرك وهو الجوهر الشريف ، والشفاف اللطيف أن يظهر فيها تلبيس الحاسد وبهتان الكاشح المعاند ، وأخلاقك التي تظلم اذا قيست في اللطافة بالسلافة ، وفي الصفاء بالصهباء أن تحمل قذى الغش الشراح ، وهي ألطف من أن تمزج بالماء القراح .

هذا محلول قوله :

يا أعدل الناس الا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقول غيره :

أخلاقك الغرّ الصفايا ما لها ... حملت قذى الواشين وهي سلاف ؟
والليس في مكنون رأيك ماله ... يخفى ، وأنت الجوهر الشفاف ؟

* * *

فصل

العادة طبيعة غالبة ، وسجية الى فعل المعتاد جاذبة ، وعاداتك الطعن في الأحداق وضرب الأعناق ، فأجر منها على اعراقك ، ومعهود عوائدك وأخلاقك ؛ فان الملك لا تثبت دعائمه حتى تخضب بالدم صوارمه .

هذا محلول قوله :

لكل امرىء من دهره ما تعودا ... وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ .

* * *

فصل في صفة السيوف

فنهدنا اليهم وفي أيدينا النار الموقدة في الرؤوس ، المعبودة قبل ملة المجوس التي لا يفسدها الماء ، ولا يطفيها الهواء ، ولا تحرق الا عماد ، ولا خمدت ليلة الميلاد . ترمي بالدم لا بالشرر ، وتوقد بالناس لا بالحجر ، تحكم تارةً بالتعظيم وتارةً بالتصغير ، وتجمع قوماً جمع السلامة وقوماً جمع التكسير .

هذا محلول قوله :

وفي أكفهمُ النار التي عبدت ... قبل المجوس ، الى ذا اليوم تضطرم .
هنديةٌ ، إن تصغر معشراً صغروا ... بحدها أو تعظم معشراً عظموا .

وقد زدت عليها زيادات كثيرة ، ورمزت الى الخبر الوارد في أن نار فارس خمدت ليلة ميلاد نبينا وخرجت الى قوله تعالى (إنها ترمي بشررٍ كالقصر) وقوله سبحانه (وقودها الناس والحجارة) ثم خرجت الى نكتة نحوية وهي جمع السلامة وجمع التكسير .

فصل

السيف بالضارب لا بمضاء المضارب ، والحسام في يد الجبان كهام ، والكهام في يد الشجاع حسام ، ولذلك قال عمرو لعمر : لا لوم عليّ ولا حيف ، فاني لم أنحلك الساعد وانما نحلتك السيف .

هذا محلول قوله :

إن السيوف مع الذين قلوبهم ... كقلوبهنّ اذا التقى الجمعان .
تلقى الحسام على جراءة حده ... مثل الجبان بكف كل جبان .

* * *

إن القتيل مضرجاً بدموعه ... مثل القتيل مضرجاً بدمائه .

القتيل المتشحط في نجيعه كالعاشق المستخرط (١) في دموعه ، وكلا المائعين دم الا أن هذا سال على أصل الخلقة ، وهذا صعدته (٢) حرقة الفرقة .

* * *

القتيل الذي قطعت شرايين نجيعه أروح من القتيل الذي قطعت شرايين دموعه ، فذاك قد فارق الدنيا فأمن شرها وخيرها ، وهذا كلما نضجت جلوده بدل جلوداً غيرها .

* * *

الدمع دم أحالت لونه نار الهوى فابيض ، وقطعت سلكه يد النوى فتبدد وارفض ، ولا فرق بينهما عند النصر والبصيرة الا" أن هذا يسيل من عضو واحد ، وذاك من أعضاء كثيرة .

* * *

فصل

عذر الخيمة واضح في السقوط ، لأنها علت على مولانا فتأدبت له في الهبوط ، وعلت عجزها عن أن تشمل من يشمل الزمان ، وأن تعلو على من يعلو على بهرام وكيوان (٣) ، فأرجاؤها في السعة بحيث يركض في كل قطر منها جحفل ، ولكنها تضيق عن العالم المجموع في الواحد الأجل وتقصر عنه وتطول على القنا الذبل ، وأظنها لما أشرقت بأنواره ، وتاهت لما غدت من جملة ديارة — لم تملك نفسها فخرت وضعفت ، ورب نفس أفرط عليها الفرح فزهقت ، ولو رزق الناس ما رزقت من الشرف الباذخ البنيان لخانتهم الأرجل وخرّوا سجوداً للجباه والأذقان ، وما سقطت

(١) في (اللسان والقاموس) : « استخرط الرجل في البكاء : لجّ فيه واشتد » .
(٢) في (اللسان) : التصعيد الاذابة ومنه قيل : حلّ مصعد وشراب مصعد اذا عولج بالنار حتى يحول عما هو عليه طعماً ولوناً .
(٣) بهرام اسم المريخ ، كيوان زحل .

عبثاً وانما اشارت بارجيل ، كما أن القصواء ما خلأت (١) وانما حبسها حابس الفيل .

هذا محلول قوله :

ايقدح في الخيمة العذل ... وتشمل من دهرها يشمل ؟!
وتعلو الذي ، زحل تحته ... محال لعمرك ما تسأل .
تضيق بشخصك ارجاؤها ... ويركض في الواحد الجحفل
وتقصر ما كنت في جوفها ... ويركز فيها القنا الذبل .
رات لون نورك في لونها ... كلون الغزالة لا ينسل .
وان لهـا شرفا باذخا ... وان الخيام بها تخجل .
فلا تنكرن لهـا صرعة ... فمن فرح النفس ما يقتل .
ولو بلغ الناس ما بلغت ... لخانتهم حولك الارجل .
ولمـا أمرت بتطنيبها ... اشيع بانك لا ترحل :
فما اعتمد الله تقويضها ... ولكن أشار بما تفعل .

وزدت على ذلك ، الخبر المشهور وهو أن رسول الله ركب ناقته القصواء في عام الحديبية متوجها الى مكة فلم تنبعث تحته فزجرها مرارا ، وزجرها أصحابه فلم تنبعث . فقالوا . خلأت القصواء . فقال النبي : ما خلأت وانما حبسها حابس الفيل ، وجرى من توقفه عن مكة وصلحه قريشا ما هو مشهور .

* * *

فصل

قصار رماحك اطول من ظلالهـا ، وطول رماح اعدائك اقصر من زجاجها ونصالها ، وكم من رمح قصر فأطلته بخطاك ، وكم من بلد بعد

(١) خلأت الناقة : حرنت . قالوا : يقال : خلأت الناقة ، والح الجمل ، وحرن الفرس .

قريته بسراك . وقطرك في الندى والردى سيول وبحار ، وعزمك في الخصوم والمدى نصول وشفار ، وأنامك راجحة ولكن خلقت سيوفك من عجل ، فكلما نهيتها عن ولوغ الدماء قالت : سبق السيف العذل . وقد ينسب الجاهل حكمك أحياناً الى تدبير او خداع ، ولا يعلم ان الليث لا يأكل الجيفة ولا يفترس الضباع .

هذا محلول قوله :

طوال قنا تطاعنها قصار ... وقطرك في ندى ووغى بحار .
وفيك اذا جنى الجاني اناة ... تظن كرامة وهي احتقار .

وقول السموءل :

اذا قصرت اسيافنا كان وصلها ... خطانا الى اعدائنا فتطول .

* * *

فصل :

الآراء الصائبة والشجاعة الثابتة تستعبد الصوارم وتستخدم المخاذم . فالتدبير أمير والشجاعة جنده ، والرأي حسام والصرامة (١) غمده ، ولو لم يلحظ هذا المعنى ويعتبر لكانت السباع أفضل من البشر ، وطالما نكست الاعلام بالاقلام ، وملكت الاصقاع بالرقاع ، ونفذت المكايد قبل نفوذ الجحافل ، فاذا اجتمع لنفس سعيدة هذان الامران نالت أقصى الامكان ، وبلغت من العليا كل مكان .

هذا محلول قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني .
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان .

(١) في (الاساس) : رجل صارم ماض في الأمور ، وقد صرم صرامة . وفي (تهذيب الالفاظ) : الصرامة قطع الامر والعزيمة .

ولربما طعن الفتى اقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الاقران .
لولا العقول لكان ادنى ضيغم ... أدنى الى شرف من الانسان .

* * *

وما الحسن في وجه الفتى شرفا له ... اذا لم يكن في فعله والخلائق .

شرف الفتى بافعاله ، لا بحسنه وجماله . كالسيف يقطع بجوهره ، لا بحسن منظره . لو كان الفخر بما بدا في الصورة وظهر ، لا بما بطن من المعنى واستتر ، لكانت صورة النمارق أشرف من الحيوان الناطق .

* * *

فصل

حسام لولا ترقرق الماء في جوانبه لتلمست النار الموقدة من مضاربه . فقد أضرّ به حب الجماجم والاعناق ، حتى عاد نضوا كالهلال ، وودت سباع الطير والوحش انها تفديه بالمخالب والانياب اذا فدي غيره بالانفس والاموال ، فاحسن ما خضب به الدم المار ، لا المسجد والنضار . والحسناء حسناء وهي في الاسمال والاطمار ، واذا كان الحلي لاتمام النقص يفعل فقشف الافضل انبل ، وعطل الاكمل أجمل .

هذا محلول قوله :

أحسن ما يخضب الحديد به ... وخاضبيه النجيع والغضب .

* * *

فصل

فلو كشف لك عن قلوبنا لرأيت الشوق قد فعل فيها ببرحائه فعل قنا الامير في صدور أعدائه . فانه جعلهم هلكى ، يطعنون مخلوجة وسلكى فالفضاء الرحب لديهم احرج من التابوت ، ونسج داود عليهم أوهن من بيت العنكبوت .

هذا محلول قوله :

تودعهم والبين فينا كأنه قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق .
قواض مواض، نسج داود عندها اذا وقعت فيه كنسج الخدرنق(١)

وفيه أيضاً حل قول امرىء القيس :

نطعنهم سلكى ومخلة حة كرّك لأمين على نابل (٢)

* * *

فصل في وصف منهزم

اجفل اجفال النعام ، واقشع اقشاع الغمام . يتوهم كل حفيف يسمعه رشق نابل ، ويرى الارض في عينيه كفة حابل . وقد كان آلى الا ينكص له قدم ، ولا يعقب يمين الجنان حنث ولا ندم . واذا تزلزلت الاقدام لم تزد اليمين في الاقدام . والحرب تحسن الهزائم ، وتغير العزائم ، وتجعل أهون شيء ما تقول اللوائم .

هذا محلول قوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم ؟!

وقوله :

والعيان الجلي يحدث للظن زوالا والمراد انتقالا .

وقول بعض شعراء الحماسة :

ملأت عليه الارض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حابل

وقول القائل :

---

(١) الخدرنق : العنكبوت

(٢) السلكى بضم السين الطعنة المستقيمة ، (المخلوجة) المعوجة عن يمين وشمال . (كرك لأمين) أي ردك لأمين وهما السهمان على من يرمي . يقال اذا القيتهما لم يقعا مستويين ، وربما استوى احدهما وتعوج الآخر . ويقال : سهم لأم اذا كان عليه ريشه .

اذا هبت النكباء بيني وبينكم فأهون شيء ما تقول العواذل.

* * *

فصل في الصفح عن الجرائم

سيف الاحسان والاجمال اقتل من سيف القتل والاستئصال . وطالما غلّ يداً مطلقها ، واسترق رقبة معتقها ، الا أن اللئيم يفسده الاحسان ، ويصلحه الهوان .

هذا محلول قوله :

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ؟ .
اذا انت اكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا .

* * *

فصل

اذا كان الهوى من القلب في الشغاف والصميم ، واللوم يحوم حول ذلك الحمى والحريم ، وكلما شاهد الحر فر ، وكلما عاين النار استطار — لا جرم أنه يستحيل جوهره هباء ، ويذهب زبده جفاء ، ويثبت في محله ذلك الهوى ، ويلقي عصاه وتستقر به النوى .

هذا محلول قوله :

عذل العواذل حول قلبي التائه وهوى الاحبة منه في سوداته .
يشكو الملام الى اللوائم حره ويصد حين يلمن عن برحائه .

* * *

لا تعذل المشتاق في اشواقه حتى يكون حشاك من احشائه .
لو ذقت ما يذوق العاشق لتركت عذله وعرفت عذره ، ومن يضع يده في الماء يجد برده ويعرف حره .

تباري نجوم القذف في كل ليلة نجوم له ، منهن ورد وأدهم .

فما زلنا نقطع الادهم الواقف بالدهم السائرات ، ونباري الشهب النيرات بالشهب الطائرات . الا أن تلك نجوم القذف والرجوم ، وهذه نجوم الغارة والهجوم .

* * *

فصل

عزائمك لا تفل ، وآراؤك لا تضل ، ومدائحك لا تمل ، وأحكامك لا تميل ، وسيفك شريك المنايا في قبض النفوس ، فهـــذه لاختطاف الارواح وهذا لاختطاف الرؤس . وكل دم لم تصنه ظباك أصبح مطلولا ، وكل ممات لم تشارك فيه عد خيانة وغلولا .

هذا محلول قوله :

شريك المنايا والنفوس غنيمة فكل ممات لم يمته غلول .

* * *

وقد حل ابن الاثير أبياتا كثيرة من شعر المتنبي اوردها في (رسائله) و (وشيه المرقوم) و (مثله السائر) وهذا نموذج منها :

إذا اختلفت العينان في النظر فالعذل ضرب من الهذر (أو) لا تعذل المحب فيما يهواه حتى تطوي القلب على ما طواه

هذا حل قوله :

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك من أحشائه .

* * *

القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون ، غير أن ذلك لا يجرد من غمده ، ولا يقاد صاحبه بعمده (أو) دمع المحب ودم القتيل متفقان في التشبيه والتمثيل ولا تجد بينهما بونا ، الا انهما يختلفان لونا .

هذا حل قوله :

ان القتيل مضرجا بدموعه مثل القتيل مضرجا بدمائه .

* * *

لما التقى الجمعان اصطفت يمين وشمال ، وزحفت جبال الى جبال ، وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفي بالآجال . وقدمت الخيل اقدام فرسانها ، واظلم النقع فلا تبصر الا بآذانها .

هذا حل قوله :

في جحفل ستر العيون غباره فكانما يبصرن بالآذان .

* * *

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم .

سرى الى حصن كذا مستعيدا منه سبية نزعها العدو اختلاسا ، وأخذها مخادعة لا افتراسا . فما نازلها حتى استفادها . ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم .

وفي هـذا من الحسن ما لا خفاء به فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثر هكذا وإلا فليترك . . ! وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر وذاك اني أضفت الى هذا البيت ، البيت الذي قبله وهو :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم .

ولما نثرت هذين البيتين قلت :

بناها والاسنة في بنائها متخاصمة ، وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمة . وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد ، وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمائم من الرءوس والاجساد ، ولا شك ان الحرب تعرد (١) عمن عز جانبه ، وتقول : ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه !

---

(١) تهرب .

وقد تصرفت في هذا الموضع بزيادة في معناه ونثرته على اسلوب أحسن من هذا الاسلوب فقلت :

بناها ودون ذاك البناء شوك الاسل ، وطوفان المنايا الذي لا يقال سآوي منه الى جبل . ولم يكن بناؤها الا بعد أن هدمت رءوس عن أعناق ، وكأنما أصيبت بجنون فعلقت القتلى عليها مكان التمائم او شينت بعطل فعلقت مكان الاطواق .

* * *

قول موجز في المتنبي

في (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي : « قال في العبر : ليس في العالم أشعر من المتنبي أبداً ، وأما مثله فقليل . »

ولقد جاء أحمد بن الحسين بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن في سجن . ولولا هذان لجودت الايام أيما تجويد تسطير ما أملى فلم يقل :

ولم تحسن الايام تكتب ما أملي

* * *

رب ما لا يعبر (الشعر) عنه والذي يضمر الفؤاد اعتقاده.

والقافية في اكثر الأحايين هي القائلة لا القائل ، والوزن هو الوازن لا شعور الشاعر ، فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية ، انه مما وجد ، ليس هو مما قصد .

ولولا أن عبقرية منتخية قوية عند أبي الطيب قد انكرت الجري على أساليب القوم

اذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم ؟!

فاحتطت له تلك الخطة — لاقام دهره من تباع (أبي تمام) يأخذ بأخذه فلا يجاريه ، ويكد روحه في أن يصوغ فلا يساويه ،

وحبيب في صوغه وغوصه لا يلحق ، وقلما ضارع مقلد عظيماً مقلدا .

ولم يستطع المتنبي — على تبريزه وارتقائه — أن يزحزح (حبيباً) عن مكانته ، وما قدر الا أن يقعد في عرش الشعر معه ، وليس بقليل أن يقتطع من ملك حبيب ورعيته ما اقتطع .

وقد قالوا : أبو تمام عند الخاصة أشعر ، والمتنبي أشعر عند العامة ، وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون ، ولئن كان لأبي تمام عشر قصائد علا بهن علوّاً كبيراً إن للمتنبي قدامها مئة (١) قصيدة .

وكان شيوخ ابن خلدون يرون — كما قال — أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء — الله أكبر ! — لأنهما لم يجريا على أساليب العرب .

وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله) ليس بشيء الا شيئاً لا يعبأ به .

وتنكب المتنبي عما تنكب عنه ، وسلوكه السبيل الذي سلكه ، ما ضاراه بل ظاهراه في ابداعه ونبوغه ، فرأت العربية أكبر شاعر ، وظهر في العرب شاعرهم .

فدعْ كلّ صوت غير صوتي فانني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

---

(١) قال ابن قتيبة في (أدب الكتاب) في باب ما زيد في الكتاب : « ومائة زادوا فيها ألفاً ليفصلوا بينها وبين مئة ألا ترى انك تقول : أخذت مائة وأخذت مئة . فلو لم تكن الألف لالتبس على القارىء » . قلت : زيدت الألف في مئة أيام لا اعجام وواجب في هذا الزمان حذفها حتى لا يضل القارىء اللافظ وكم أضلك هذه الألف فتح الميم لافظ المئة ومد .